من آيات الله
فى الأرض والأنفس

قال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

إن المتأمل فى أحوال وشئون الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه، يجد أنه معرض هائل لآيات الله، وعجائب صنعته.

معرض لم نستحل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه، ونحن نكشف فى كل يوم جديداً منه، ونطلع منه على جديد، ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا نحن: النفس البشرية. الخفية الأسرار.

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة، التى تفتح هذين المعرضين لمن يريد أن يبصر، ولمن يريد أن يستيقن، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة، وبالعبرة الحية، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقه.

والنصوص القرآنية مُعدةٌ للعمل فى جميع الأوساط، والبيئات والظروف، والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس، ولكل عقل، ولكل إدراك كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق.

وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة، واتسعت مداركه وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون، وأسرار النفس.. ارتقى نصيبه، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن.

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله فى الأرض وآياته فى أنفسهم نصيبهم، وتسلموا رصيدهم وفق معارفهم، وتجاربهم، وإشراقات نفوسهم.

ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيباً يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم، والمعارف ، والتجارب. . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم، والمعرفة، والتجريب، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد فى هذا الكون الكبير، وستجد الأجيال بعدنا نصيباً مدخراً لها من الآيات التى لم تكشف لنا بعد فى الأرض والنفس.

هذه الأرض التى نعيش عليها حافلة بالمشاهد من الأحياء التى تعمر الأرض من النبات والحيوان، والطير، والسمك، والزواحف، والحشرات. قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿**وفى الأرض آيات**﴾ تدل على الصانع وقدرته، وحكمته، وتدبيره، حيث هى مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها، وهى مجزأةٌ: فمن سهل، ومن جبل، وصلبة، ورخوة، وسبخة، وفيها عيون متفجرة، ومعادن، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال.

ويقول البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿**وفى الأرض آيات**﴾ أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان أو وجوه دلالات من الدحو، والسكون، وارتفاع بعضها عن الماء، واختلاف أجزائها فى الكيفيات، والخواص، تدل على وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، وإرادته، ووحدته.

ثم انظر وتأمل فى آيات الله المعروضة فى الأرض. . الأقوات المذخورة فى الأرض للأحياء التى تسكنها، تسكن سطحها، أو تسبح فى أجوائها أو تمخر ماءها، أو تختبئ فى مغاورها وكهوفها أو تختفى فى مساربها وأجوافها.

هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود فى شتى الأشكال والأنواع لتلبى حاجة هذه الأحياء التى لا تحصى ولا تحصى أنواع غذائها أيضاً.

هذه الأقوات الكامنة فى جوفها، والسارية فى مجاريها والسابحة فى هوائها، والنابتة على سطحها، والقادمة إليها من الشمس، ومن عوالم أخرى، بعضها معروف وبعضها مجهول، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التى خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة، وجهزته بكل ما يلزم للأنواع الكثيرة التى لا تحصى.

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها حيثما امتد الطرف، وحيثما تنقلت القدم، وعجائب هذه المشاهد لا تنفد: من وهاد، وبطاح، ووديان، وجبال، وبحار، وبحيرات، وأنهار، وغدران، وقطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لا تفتر عن الإبداع والتغيير.

والخلائق التى تعمر هذه الأرض من الأحياء.. نباتاً، وحيواناً وطيراً، وسمكاً، وزواحف وحشرات، كل خليقة منها أمة، وكل فرد منها عجيبة. كل حيوان، كل طائر، كل زاحفة، كل حشرة، كل دودة، كل نبتة، لا بل كل جناح فى يرقة، وكل ورقة فى زهرة، وكل قصبة فى ورقة.

فى ذلك المعرض الإلهى العجيب الذى لا تنقضى عجائبه ولو مضى الإنسان. بل لو مضى الناس جميعاً يتأملون هكذا، ويشيرون مجرد إشارة إلى ما فى الأرض من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ما انتهى لهم قول ولا إشارة.

غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين ﴿**وفى الأرض آيات للموقنين**﴾ فلمسة اليقين هى التى تحى القلب، فيرى ويدرك، وتحى مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما ورائها من تدبير وإبداع، فقوله تعالى: ﴿**فى الأرض آيات للموقنين**﴾ إشارة إلى أنه لا ينتفع بتلك الآيات الكونية، ولا يقع على مواقع الهدى منها إلا أهل اليقين الذين يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجاد، والنظر المتفحص.

وإذا كانت الأرض كلها عجائب وآيات، فهناك عجيبة تدب على هذه الأرض قال تعالى: ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ أن هذه العجيبة هى هذا المخلوق الإنسانى، إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى، عجيبة فى تكوينه الروحى، عجيبة فى أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة فى باطنه.

وأنه ليكفى الناس أن ينظروا فى أنفسهم. فإن فى أنفسهم عالماً رحيباً، وكوناً فسيحاً، وأنه ليكفى أن يقيم أحد الناس بصره على مسيرته فى الحياة، من وجوده نطفةً إلى أن صار رجلاً، إنه سيجد فى هذا سجلاً حافلاً بالآيات الدالة على قدرة الخالق، وعلى حكمته وعلى بديع صنعه.

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومرآة من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً، لا فى شكله، وملامحه ولا فى عقله ومداركه، ولا فى روحه ومشاعره.

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة للبصر تراه العيون ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾.

* * *

المصادر والمراجع

ابن كثير: (أبى الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم- ط كتاب الشعب - القاهرة.

الأهل: (عبد العزيز سيد) من إشارات العلوم فى القرآن - ط النهضة الحديثة- بيروت ١٣٩٢هـ.

البلادى: (عاتق بن غيث) آيات الله الباهرات - ط دار مكة - مكة المكرمة ١٤١٢هـ.

البيضاوى: (ناصر الدين عبد الله بن عمر) تفسير البيضاوى- ط استانبول ١٣٠٥هـ.

تعليب: (عبد المنعم أحمد) آيات الإيمان بالله - ط دار القلم - الكويت ١٣٩٤هـ.

حجازى: (محمد محمود) التفسير الواضح - ط مطبعة الاستقلال- القاهرة ١٣٩٢هـ.

حوى: (سعيد) الأساس فى التفسير- ط دار السلام - القاهرة ١٤٠٥هـ.

الخطيب: (عبد الكريم) التفسير القرآنى للقرآن - ط دار الفكر العربى القاهرة١٩٦٧هـ.

الفخر الرازى: (محمد بن عمر) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - ط القاهرة ١٩٣٣م.

رجب: (عبد الجواد) مع الله نظرات فى الكون والحياة - ط دار الاعتصام ١٣٩٤هـ.

الزمخشرى: (جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق التنزيل ومبين الأقاويل - ط الحلبى القاهرة ١٣٨٥هـ.

السايح: (الدكتور أحمد عبد الرحيم) المعرفة فى الإسلام بين الأصالة والمعاصرة- ط دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٤٠٠هـ.
الشوكانى: (محمد بن على) فتح القدير - ط مصطفى الحلبى- القاهرة.
عبد الباقى: (محمد فؤاد) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - ط كتاب الشعب - القاهرة.
عبده: (الإمام محمد) الإسلام بين العلم والمدنية- ط كتاب الهلال - القاهرة ١٩٦٠م
العدوى: (محمد أحمد) آيات الله فى الآفاق - ط دار المنار - القاهرة ١٣٥٢هـ.
الغمراوى: (محمد أحمد) الإسلام فى عصر العلم- ط دار الإنسان- القاهرة ١٣٩٣هـ.
الغمراوى: (محمد أحمد) فى سنة الله الكونية - ط لجنة التأليف ١٣٥٥هـ.
فرهود: (الدكتور محمد السعدى) فى رحاب البيان القرآنى - ط دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ.
الفندى: (محمد جمال الدين) القرآن والعلم - ط دار المعرفة القاهرة .
قطب: (الشهيد سيد) فى ظلال القرآن - ط دار الشروق - القاهرة.
قنبى: (الدكتور حامد صادق) الكون والإنسان فى التصور الإسلامى - ط مكتبة الفلاح - الكويت ١٤٠٠هـ.
مجموعة من العلماء: (لجنة التفسير) المنتخب من التفسير - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
مجمع البحوث الإسلامية: (لجنة التفسير) التفسير الوسيط - ط مجمع البحوث الإسلامية الأزهر.
المراغى: (أحمد مصطفى) تفسير المراغى - ط الحلبى القاهرة ١٣٨٢هـ.
موريسون: (كريس) العلم يدعو للإيمان - ط النهضة المصرية ١٩٧٧م.
نوفل: (عبد الرزاق) الله والعلم الحديث - ط الناشرون العرب ١٩٧١م.